

من هنا وهناك

نشأة الصحافة الفرنسية في مصر

إذا كانت الطباعة قد سبقت الصحافة بأوقات متفاوتة في البلاد الأخرى ، فإن مصر لم تعرف عنهما شيئاً قبل قدوم الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، حيث جاءها نابليون بونابرت بالاثنتين معاً . كانت مصر ولاية عثمانية . وقد أنشئت أول مطبعة في القسطنطينية سنة ١٧٢٨ . ولم يفكر واحد من الباشوات الذين تعاقبوا على حكم مصر في إنشاء مطبعة أخرى في القاهرة أو في الاسكندرية . أما البكوات المالك فلم يكن لديهم متسع من الوقت للبحث في مثل هذا الموضوع ؛ فقد شغلوا بالمؤامرات التي كانوا يدبرونها لولاة الباب العالي ، كما كان أكبر قسط من تفكيرهم يرمى إلى دعم سلطانهم وابتزاز الأموال من التجار والفلاحين وبت الذعر والرعب بين الأهالي ، حتى ضج القوم من مظالمهم وارتفعت الشكوى من طغيانهم . ولم يكن غرض نابليون بونابرت من فتحه لمصر حربياً محسب ، بل أراد

حملته مدى أوسع وأثراً أبلغ ؛ فاستصحب معه طائفة من أشهر علماء عصره ، قاموا بالبحث والتنقيب في أرجاء البلاد وعاونوه في نواحي النشاط السياسي والاجتماعي والاقتصادي جميعاً . وكان هو حريصاً على أن ينشر الآراء ويذيع البحوث حتى يعرف رجال الحملة خاصة والفرنسيون عامة نتائج أعماله ومدى نجاحه . فأحضر معه لذلك الغرض مطبعة مزودة بالحروف العربية واللاتينية واليونانية . ولم يمض ستون يوماً على نزول الحملة في الأراضي المصرية حتى أصدر نابليون صحيفته الاخبارية السياسية *Courrier de l'Égypte* أي « بريد مصر » . وظهر العدد الأول منها في ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ في أربع صفحات تقارب قطع هذه المجلة . وكانت الجريدة تظهر مرة كل أربعة أيام في الشهر الأول ، ثم تجاوزت هذه المدة وأصبح صدورها غير منتظم . وقد وضعت للجريدة منذ نشأتها

يخلصونهم من عسف البدو الرحل
وظلم المالك .

وكانت النداءات والتنبيهات التي
تصدر للأهالى تجمع بين الثناء على
بونابرت والتهديد بالشدة والحزم .
وكانت تترجم وتنشر فى الجريدة حتى
يطلع عليها الجنود ، فيتخيلون مبلغ
قوتهم ويتصورون مدى نجاحهم . مثل
ذلك ماجاء فى أحد المنشورات من « أن
نابليون قد منع القوات من إحراق
مدينة القاهرة وسلبها ؛ لأنه حكيم ،
وخير ورحيم بالمسلمين . فهو حامى
الفقراء . ولولاه لما بقى أهل القاهرة
على قيد الحياة » .

ومضى كبير ومينوم بعد بونابرت
على نفس الطريقة فى الدعاية بين
الأهالى . وكان مينو خاصة يذكرها
فى منشوراته بالمظالم التى عانوها
وبالدماء التى سالت فى القاهرة وبولاق
والحلة الكبرى عندما استمعوا لأهل
السوء ، ويهددهم آخر الأمر بالنار
والحديد إذا ماسولت لهم أنفسهم العودة
إلى مناوأة رجال الاحتلال . ويختم
النداء بما يأتى : « سلام على من اتبع
الهدى . . . والويل لمن ابتعد عن
الصرط المستقيم . »

وكانت جريدة لو كورييه تعنى
عناية خاصة بأخبار الرحلات والبحوث

سياسة محددة لم تتعد عنها فى يوم من
الأيام ؛ فهى لا تتعرض بالنقد لأعمال
الحكومة الفرنسية بأى حال من الأحوال ،
وكان المحرر يخضع لاعتبارات كثيرة
عند اختيار الأخبار ونشرها ، فمصير
الجريدة حتما إلى أيدى الجنود والضباط
الفرنسيين المقيمين بمصر وغيرها .
وقواد الجيش لا يهتمون بشئ مثل
اهتمامهم بالروح المعنوية القوية التى
يجب أن تسود قوات الاحتلال ، ولا
يسمحون بنشر أى خبر يمس تلك
الناحية من قريب أو من بعيد .

وعلى ذلك كانت جريدة لو كورييه
دائمة التفاؤل ، بعيدة كل البعد عن
الأخبار المثيرة الداخلية منها والخارجية .
ويغلب عليها الطابع العسكرى الذى
يبث روح الشجاعة والاقدام فى الجنود
والضباط . وهى تسرف فى وصف ساحات
القتال ، وتحاول أن تثبت الكلمات
الأخيرة لمن يموتون بين قصف المدافع
وصليل السيوف . وتكثر من وصف
الحفلات التى يحضرها نابليون بونابرت ،
وتتحدث بأسهاب عن حركات المقاومة
التى يقوم بها الأهالى فى مختلف البلاد .
ولكنها كانت ترمى فى الأولى إلى مدح
القائد العام ورجاله ، وتدعى فى الثانية
أن الفلاحين يستقبلون الفرنسيين فى
كل مكان بالفرح والابتهاج ؛ لأنهم

التي كان يقوم بها العلماء الفرنسيون . وكانت تأتي بملخصات لتقاريرهم عن الأماكن التي زاروها وعن نواحي نشاطهم العلمي والفني . . . ثم يزيد المحرر عليها ما يحتاج فؤاده من الأصل في التقدم والرقى .

فالزراعة مثلا تبشر بالخير لارتفاع مناسيب النيل ونتيجة للتحسينات التي أدخلت على وسائل الري . . . كما أن الرجاء كبير في تحسن الصحة العامة في البلاد ؛ لأن الأطباء الفرنسيين يبحثون كل يوم عن الداء ، ويصفون الدواء الناجع ، وينشرون في كل مكان وسائل الوقاية من الأمراض المتوطنة . . . وجباية الأموال « الميري » سوف يسودها العدل والانصاف ؛ لأن الحكومة قد وضعت لذلك قواعد ثابتة ستقوم بتطبيقها في كل أنحاء البلاد وعلى كل الأفراد بلا استثناء . . . أما الأمن والحرية فالفرنسيون ما جاءوا مصر إلا للدعوة لهم علميا بواسطة علمائهم ومشرعهم ، وعمليا بواسطة جيش الشرق . وليس من العقول أن يأتي رسل « الحرية والاخاء والمساواة » إلى مصر ويضعوا فيها قواعد لا تقوم على الحرية والاخاء والمساواة .

ولم تكن الجريدة تقتصر في أنبأها على مصر ، بل كانت تحمل أيضاً الكثير من الأخبار الخارجية . فهي تسجل تنقلات الجيش الفرنسى في الشرق وتأتى بأخباره تباعاً . وتنقل النص الكامل لدستور الجمهورية الفرنسية . . كما أنها تفرد مكاناً خاصاً في كل عدد لأبناء فرنسا ، وتنشر المكاتبات المتبادلة بين بونايرت وخلفائه وبين حكومة الادارة . وكانت تحرص على العناية بالتقارير التي كان يقدمها قائد جيش الشرق إلى تلك الحكومة . وكان للهيئة التشريعية الفرنسية مكان ممتاز في لوكوربيه ؛ إذ كانت تهتم اهتماماً خاصاً بأخبارها وتنشر مناقشاتها ، وتسهب إذا كان الأمر يتعلق بالحملة وأعمالها ، وتسجل كلمات الشناء والتقدير التي كان يرسلها الأعضاء عابرة البحار لمواطنيهم في مصر .

وكانت الجريدة تختار من أنباء أوروبا ما يلائم السياسة الدولية الفرنسية في ذلك العصر ، مثل اهتمامها بالصراع بين إيرلندا وبريطانيا العظمى ؛ فهي تنشر أخبار هذا النزاع في بضعة أعداد متتالية تهاجم فيها بريطانيا هجوماً عنيفاً ، وترغم أن الوزراء الانجليز قد أخفقوا في سياستهم إزاء إيرلندا ، وأنهم كانوا ينتقمون من الارلنديين فيقتلون المجاهدين

تباعاً للمواطن كوستاز Costaz ثم المواطن فوريه Fourier ، ثم المواطن الدكتور ديجنت Desgenettes ، وقد صدر منها ستة عشر ومائة عدد يحمل الأخير تاريخ ٩ يونية سنة ١٨٠١ . وطبع الثلاثون عدداً الأولى في مطبعة مارك أوريل Marc Aurel أما الأعداد الأخرى فقد قامت بطبعها المطبعة التي أحضرها نابليون . وكانت لغتها بسيطة يتخللها الكثير من الأخطاء المطبعية وبعض الغلطات اللغوية . وقد لاقت رواجاً كبيراً بين المواطنين لأنها حملت لهم أخبار إخوانهم في البلاد الأخرى وأنبأ فرنسا موطنهم الأصلي .

وفي أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ صدر العدد الأول من *La Décade Egyptienne* أي « العشرية المصرية » وهي أول مجلة فرنسية أدبية علمية اقتصادية تظهر في مصر . وقد تقرر إنشاؤها في أول اجتماع للمعهد العلمي المصري حتى تكون سجلاً له تنشر فيه بحوث علمائه وتقارير أعضائه . وقد جمعت الأعداد التسعة الأولى التي ظهرت بانتظام مرة كل عشرة أيام في مجلد أهدى إلى نابليون وجاء في مقدمته التي حررها المواطن تاليان Tallien « أن الهدف الذي

منهم في سبيل استقلال بلادهم . أما في الناحية الأدبية فقد حرصت لو كوريه على ألا تثير شعور الحنين للوطن . فاهتمت ببعض الشعر الذي يماح الجيش وقائده . ونشرت بعض القصائد التي نصف النيل والبلاد والآثار المصرية وصفاً يجيبها إلى القلوب ويدنيها من الذوق الفرنسي . ولكن هذا الشعر كان يفتقر إلى الوحي الصادق والتعبير الصحيح ، فلا عجب إذا ظهرت هذه الناحية ضعيفة مبتذلة سقيمة .

وجاءت الحريدة أيضاً ببعض الاعلانات التي تم قراءها ، مثل الاعلان والتنظم عن المجلة الأدبية التي يصدرها المجمع العلمي المصري ، وإعلانات أخرى عن بعض الحوائث أو عن أشياء مفقودة أو عن حفلات ساهرة وغيرها . . . ومع ذلك فقد ظل هذا الباب ضيقاً وبقى عدد الاعلانات محدوداً طوال مدة ظهور الصحيفة .

هذه بعض النواحي التي اهتمت بها الصحيفة الفرنسية الأخبارية ، السياسية الأولى التي ظهرت في مصر . ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر ، لكي نعطي صورة واضحة لها بقدر المستطاع . وكان يشرف على تحريرها

نرمى إليه ليس تعريف مصر إلى الفرنسيين المقيمين فيها الآن فحسب ، بل نريد أيضاً أن نعرفها إلى فرنسا وإلى الأوربيين جميعاً . ثم ظهرت « لاديكاد » بعد ذلك مرة كل شهر ، وكونت الأعداد التسعة التالية كتاباً أهدي إلى الجنرال كليبر . ثم شاءت الأقدار أن يهدى المجلد الثالث والأخير منها إلى الجنرال مينو . وليس في نيتنا أن نحصر هنا كل المواضيع التي عالجها العلماء الفرنسيون ونشرتها « لاديكاد » . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المجلة قد سجلت النواحي العديدة لنشاط الفكر الفرنسى في مصر ، وقلت الكثير من التقارير بحيث أصبحت شبه موسوعة صغيرة نجد فيها التاريخ والجغرافيا والآداب والاقتصاد السياسى والعلوم الطبيعية والزراعية والطبية وغير ذلك من مختلف البحوث .

وقد حمل كل عدد من « لاديكاد » ملخصاً لمحضر جلسات الجمع والمناقشات التى تدور فيها . وما يلفت النظر أنه قلما وجد عدد خلا من تقرير طبي لأحد أطباء الجيش الفرنسى . ومن طريف ما كان يقرأ فيها هذه الملاحظات التى أتى بها الطبيب سيرزول Cérésolle فى تقريره عن رحلة قام بها من القاهرة

إلى أسبوت . قال : « إن خوف الفلاحين من الأطباء شديد للغاية . وهم يميلون إلى الخرافات ولا يصدقون كلمة العلم . أما اعتقادهم بالقضاء والقدر فقد بلغ حد التعصب . وأظن أن ذلك ناتج عن الآراء والأفكار التى ورثوها عن قدامى المصريين وإنى ليدهشنى أن أرى مقابر الأموات وقد اعتنى بها عناية فائقة على حين بقيت منازل الأحياء مهدمة قدرة لاتوافر فيها أبسط الشروط الطبية » وكانت هذه التقارير ترفع إلى الدكتور ديحنت كبير أطباء الجيش الذى يرجع إليه الفضل فى نشرها وإذاعتها .

وإذا أردنا أن نختار بغض الأمثلة للبحوث الأخرى التى كانت تنشر فى « لاديكاد » وجدنا صعوبة فى التفضيل بينها لما يحمل كل منها من المزايا العلمية والفنية جميعاً . وعلى كل حال فإن تخطيط بعض البلاد المصرية ومواقعها والحالة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية فيها قد شغل مكاناً كبيراً من المجلة . فتحدث نويه Nouet عن موقع القاهرة الجغرافى . وكتب جيرار Girard عن الزراعة والصناعة والتجارة فى دمياط ومصر العليا ، واهتم كارييه Carrié بمنطقة منوف . وبحث أندريوسى Andréossy فى تكوين

إذا أرادوا أن يطلعوا على مختلف الموضوعات الشائقة التي شغلت نخبة مختارة من العلماء الفرنسيين الذين أقاموا في مصر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١ .

وبانتهاء الحملة الفرنسية عادت مصر إلى خلوها من الطباعة والصحافة . ولكن لا يمكننا أن ننكر أثر « لوكورييه » « ولاديكاد » في تاريخ بلادنا . ومع أن المصريين كانوا يجهلون اللغبه الفرنسية في ذلك العصر . فان انتشار هاتين الجريدتين بين العامة والخاصة من الفرنسيين . قد لفت نظرهم إلى تلك القوة الجديدة التي يمكن الانتفاع بها للصالح العام .

ومع ذلك فقد ظلت مصر تفتقر إلى الطباعة والصحافة حتى جاءها بهما عهد علي . ثم تطورت الصحافة من رسمية إلى شعبية في عهد الخديو اسماعيل ، وتعددت لغاتها وتنوعت بحوثها وقوى ساعدها وسيرت مقومات الحضارة الحديثة .

بحيرة المنزلة ووادي النطرون وحلج رنيو Regnault غرين النيل . ووصف فوريه Fourier الواحات . ودرس تاليان Tallien نظام الحكم في مصر قبل الحملة ، وأبان طرق جباية الأموال الأميرية ، وتحدث عن النقود والميراث والأوقاف .

وقد كتب أسماء البلاد والأماكن في هذه التقارير باللغتين الفرنسية والعربية . . . وكان للترجمة شأن ملحوظ في « لاديكاد » ؛ إذ نقل المستشرق حنا يوسف مارسيل Jean Joseph Marcel فاتحة القرآن إلى الفرنسية شعراً . وكانت ترجمته صحيحة ما عدا بعض الألفاظ والعبارات التي اضطر إلى إضافتها لتكوين الشعر ، كما ترجم أمثال لقمان الحكيم وشرح قيمتها عند الشرقيين مستشهداً ببعض الآيات ، القرآنية مثل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » .

وخلاصة القول أنه يمكننا أن نعتبر مجلة « لاديكاد » سجلاً قيماً يرجع إليه الناس